مؤسسة مهجة القدس
MUHJAT ALQUDS FOUNDATION

من فكر السجون وأدبه

الإصـــدار العشرون

الإضـــراب عـــن الماء

دراسة حالة للأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الصهيوني

محمد سعيد حسن إغبارية

سجن ريمون

الإضراب عن الماء

دراسة حالة للأسرى الفلسطينيين في سجون الاحتلال الصهيوني

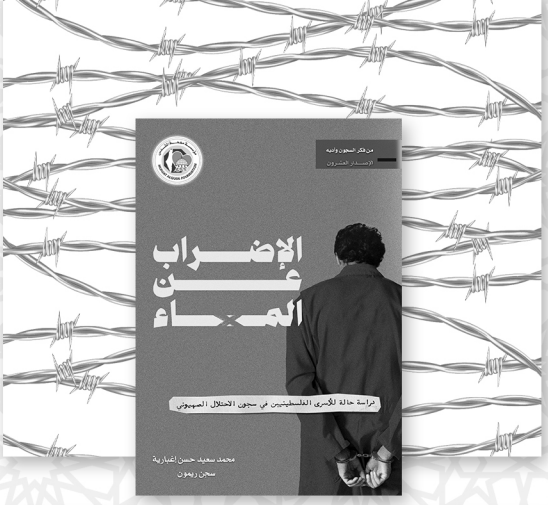

الكتاب: سلسلة فكر وأدب السجون (20)

الإضراب عن الماء

دراسة حالة للأسرى الفلسطينيين
في سجون الاحتلال الصهيوني

المؤلف: الأسير المجاهد/ محمد سعيد حسن إغبارية

الناشر: مؤسسة مهجة القدس

غزة - فلسطين

الطبعة: الأولى

سنة النشر: رمضان 1444هـ
مارس - آذار 2023م

رقم الإيداع: 1981 / 2023

**الآراء الواردة في الكتاب لا تُعبّر بالضرورة
عن وجهة نظر مؤسسة مهجة القدس**

حقوق الطبع والنشر محفوظة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

صدق الله العظيم

[البقرة: 155]

إهداء

إلى كل من استل سيف القدس عاليًا

وأقسم ألا يعيده إلى غمده

إلا لاستراحة المقاتل أو منتصرًا.

الإضراب عن الماء

هل هناك فلسطيني واحد لم يجرب الإضراب عن الطعام؟ أو لم يكن له قريب أو صديق خاض إضرابًا عن الطعام؟! أو لم يشارك في مظاهرة تضامنية مع الأسرى المضربين؟ فهو، لابد، بفعل كثافة الصراع وتغول الاحتلال جرب على الأقل واحدة منها ولو بقلبه.

غير أن هناك وسيلة نضالية غير معروفة إلا لمنكوبي الهزات الأرضية، وغير مسبوقة بشدة غلوها وقسوتها في أوساط الأسرى الفلسطينيين؛ اجترح شكلها التضحوي عام 2019 أسرى فلسطينيون حملوا أرواحهم على أكفهم دون أن يطرف لهم جفن، بقرار فردي منهم، دون الرجوع إلى تنظيماتهم، لخير المجموع والمصلحة العامة للأسرى كافة، فصفَّدوا العدو والصديق بسلاسل الإرباك والحرج الشديدين من قوة المفاجأة ووقع الصدمة.

وكانت هذه الوسيلة التضحوية في جوهرها، والمتميزة بأقصى درجات إنكار الذات هي الإضراب عن الماء.

ولا يظن الباحث أن هناك فلسطينيًا واحدًا قد جرب الإضراب عن الماء (أي الامتناع بالكلية عن شرب الماء البتة)، وهذا ما أكسب هذه الظاهرة أهمية كبيرة في دراستها وبحثها لتكون معروفة في أبعادها كافة لجميع عناوين قوى الشعب الفلسطيني التي تسهر على أوضاع الأسرى

بلا كلل أو ملل في مناصرتهم وإسنادهم بكل مقومات الصمود والمواجهة في كفاحهم اليومي الطويل والمرير لأجل البقاء والكرامة[1].

فهل عطشت يومًا عطشًا باختيارك الحر وبمحض إرادتك إلى حد تتمنى معه أن تشرب قطرة دمع من دمع عيونك؟! أو تمتص لأجله قطرة دم من دم شرايينك؟

هذا ما كان يتمناه الأسير فهمي أبو صلاح، وهو في يومه السابع من إضرابه عن الماء، غير أنه شدد قائلًا: «لكن عندما كان السجان يجلب لي كوبًا من الماء في كل ساعة تقريبًا؛ لإغرائي بالشرب أو قنينة كولا ترشح برودة لكسر إرادتي وفك إضرابي كانت تصطك أسناني عنادًا ويشتد عزمي إصرارًا وتتعاظم لدي روح التحدي، أو كما يقال باللهجة العامية في بيت حانون (روح التناحة)».

ستحاول هذه الدراسة وصف أحوال المضرب عن الماء يومًا بيوم لريادة التجربة وأهميتها، وستتناول إضراب عام 2019م كنموذج حي وواقعي لعملية الإضراب عن الماء، وتسعى من خلال البيانات التي استقاها الباحث من صناع التجربة أنفسهم، ومن القيادات ذات الصلة عبر أدوات الاستبانة والمقابلة الشخصية؛ لمعرفة الأسباب والدوافع التي حملت هؤلاء الأسرى على خوض هذه التجربة وإبراز ما مروا به أثناء الإضراب، ثم معرفة كيفية تعاطي إدارة سجون الاحتلال معها، ثم معرفة كيفية تعاطي الحركة الأسيرة وجماهير الشعب الفلسطيني معها.

(1) لقد ثبت للباحث أنه كانت هناك حالات فردية مغمورة قد أضربت عن الماء، وغالبها في فترات التحقيق أو بالعزل قبل إضراب عام 2019م. لقد تكشفت للباحث بعد انتهائه من إعداد الدراسة وربما بعضهم أفرج عنهم.

إضراب الأسرى عن الماء عام 2019م – دراسة حالة

لقد سجل الأسرى الفلسطينيون _بلا ريب_ بتضحياتهم صفحات مشرقة، وقدموا نموذجًا يحتذى به للنضال وتحقيق الإنجازات وانتزاع الحقوق على مدار سنين الأسر والمسيرة الاعتقالية، ورغم ما تعرضت له من معاناة وحرمان واضطهاد وضغوطات نفسية ومادية، ومحاولات لكسر إرادتهم ومعنوياتهم من قبل آلة البطش الممثلة في مصلحة السجون ومنظومتها الأمنية إلا أنها تميزت بتمكنها من انتزاع إنجازات ومكتسبات وحقوق من بين شدقي الذئب والمحافظة عليها عبر العديد من الطرق والخطوات النضالية المرحلية منها والاستراتيجية كخطوة الإضراب عن الطعام.

والأسرى الفلسطينيون لا يلجؤون إلى الإضراب عن الطعام إلا بعد أن يقتنعوا تمام الاقتناع أن كافة الوسائل الناعمة الأخرى لم تحمل إدارة السجون على التجاوب إيجابيًا مع مطالبهم. فدومًا كان الإضراب عن الطعام آخر الخيارات، وكان ينفق لأجله الوقت والجهد داخليًا وخارجيًا في سبيل الإعداد المحكم والشامل لتأمين أعلى فرص النجاح له.

غير أن ما ميَّز الإضراب عن الطعام عام 2019م أن انفرد عشرة أسرى عن زملائهم الأسرى المضربين باستحكام القناعة لديهم أن الإضراب عن الطعام لم يعد فعالًا كما كان في السابق لتحقيق المطالب بفترة زمنية

معقولـة، ومعرفتهـم بمـدى سـيطرة الإدارة عليـه، وقدرتهـا عـلى إدارتـه بثقـة عاليـة، وبأقـل الخسـائر مـن طرفهـا، وعـلى حسـاب معاناتهـم هـم، وتحـت عيونهـم الشـامتة.

فـأراد هـؤلاء الأسرى العـشرة أن يقـصروا مـدة معاناتهـم الطويلـة عـن الطعـام، فبـدل أن يضربـوا عـن الطعـام 20 أو 30 أو 40 يومًـا، وربـما أكثـر، كـما حـدث في إضراب عـام 2017م الـذي قـاده المناضـل مـروان البرغوثـي[1] اعتزمـوا تبنـي الوسـيلة الأكثـر تضحويـة والأشـد معانـاة، وهـو الإضراب عـن المـاء، اجتهـادًا منهـم أنـه مـن شـأنه أن يدخلهـم إلى حالـة الخطـر في بضعـة أيـام قليلـة، ممـا يجبر الإدارة للتعاطـي إيجابيًـا مـع مطالبهـم في غضـون فـترة قصـيرة.

وقـام الباحـث هنـا، مدفوعًـا بإيمانـه العميـق، وبـما يوجبـه الضمـير، وتقتضيـه الأمانـة، بتسـجيل أسـمائهم، أسـماء مـن بـادروا ونحتـوا وصنعـوا بدمهـم وآلامهـم ومعاناتهـم التجربـة الأولى غـير المسـبوقة في سـبيل كرامـة الأسرى كافـة، وبـصرف النظـر عـن حكـم الباحـث القيمـي والأخلاقـي والموضوعـي بـه، بـل تسـجيلها بفضـل مـا تميزوا بـه مـن روح تضحويـة عاليـة في أنصـع صفحـة مـن كتـاب تاريـخ نضـال الحركـة الوطنيـة الفلسـطينية الأسـيرة.

وأسماء هؤلاء الأسرى على النحو التالي:

1. أحمد رشاد السكني — غزة – حي الزيتون.
2. ياسر محمود أبو حمد — غزة – خانيونس.
3. رمضان عيد مشاهره — القدس – جبل المكبر.

(1) إضراب قـاده القائـد مـروان البرغوثـي في سـجن هداريـم عـام 2017م مـع مئـات الأسرى، واسـتمر 41 يومًـا، ورفـع فيـه شـعار التليفـون العمومـي.

4. فهمي أسعد أبو صلاح	غزة – بيت حانون.
5. محمود عامر نصار	نابلس – مادما.
6. محمود عبد الغفار مفارجه	المثلث – الطيبة.
7. عبادة أبو راس	القدس – بيرنبالا.
8. عودة فريد حروب	الخليل – دير سامت.
9. بهاء الدين العدم	الخليل – دير سامت.
10. محمود إسماعيل حروب	الخليل – دير سامت.

والأسيران اللذان ابتدآ الإضراب عن الماء هما: الأسير أحمد السكني، والأسير ياسر أبو حمد حيث كان ذلك في شهر مارس (آذار) 2019م، ثم بعد ستة أشهر أي في سبتمبر (أيلول) خاض باقي الأسرى العشرة إضرابهم عن الماء احتذاءً بتجربتهما، واستكمالًا لنفس المطالب، بكلمات أخرى كان خيارهم المعادلة التالية: مركَّز قصير ولا تقطير طويل، أي أنهم يفضلون عذابًا مركزًا لفترة قصيرة، ولا معاناة بالقطَّارة لفترة طويلة.

وكان السبب المباشر الذي حمل الاثنين مع باقي الأسرى على الإعلان عن إضرابهم عن الطعام، ثم استكمالهما له بالإضراب عن الماء هو تركيب مصلحة السجون أجهزة تشويش إرسال ضخمة وقوية جدًا، في الأسبوع الأول من شهر مارس (آذار) 2019م، كانت قد استوردتها دولة الاحتلال من بريطانيا بغرض منع الأسرى الفلسطينيين من الاتصال بأهاليهم عبر البلفونات المهربة، وأول قسم زودوه بهذه الأجهزة هو القسم الذي يقطنه هؤلاء الأسرى (قسم رامون)، وكان التشويش قويًا جدًا ومرعبًا جدًا

بشكله وقوة تأثيره لدرجة أن تأثيره قد طال إذاعات الراديو المحلية F.M، وأجهزة التلفزيون، حتى السماعات اللاسلكية قد تعطلت بالكامل، فكانت هذه الأجهزة المخيفة _بحق_ إعدامًا لكل وسيلة يتواصل بها الأسرى مع ذويهم ومع العالم الخارجي.

غير أن الأمر الأشد رعبًا والأكثر تأثيرًا على قناعات الأسرى هو ما شاع بينهم عن فداحة تأثير هذه الأجهزة على صحتهم، وأن أشعتها قد تتسبب بالإصابة بالسرطان.

وهذا ربما ما يفسر أيضًا قوة الاندفاع وشدة القناعة للذهاب إلى أكثر الوسائل تطرفًا في تضحيتها: الإضراب عن الماء، فكان شعارهم إزالة هذه الأجهزة الفتاكة أو الموت دونها.

فأعلنت مجموعة من الأسرى إضرابهم عن الطعام بعد أيام من إحراق قسم (1)، حيث تم حرقه من الأسرى أنفسهم في 18/ 03/ 2019م، وفي نفس اليوم تطور الإضراب عن الطعام عند الأسيرين: أحمد السكني وياسر أبو حمد إلى إضراب عن الماء.

ثم في تاريخ 24/ 3/ 2019م قام الأسير إسلام وشاحي[1] في قسم (4) بسجن النقب بطعن سجان برتبة ضابط وإصابته بجروح خطيرة احتجاجًا على تركيب الأجهزة في قسمهم.

(1) إسلام يسري الوشاحي، ينتمي إلى حركة حماس، من قرية مثلث الشهداء، تم اعتقاله في 01/ 12/ 2002م ومحكوم 19 عامًا، وحين تنفيذه للعملية كان باقيًا له سنة ونصف، وقدمت بحقه لائحة اتهام يطلب فيها الاحتلال إضافة من 10 إلى 15 سنة إلى حكمه.

فتباين الفعل بين رامون ونفحة وكان هدفهم واحدًا: إزالة الأجهزة المسرطنة (كما سماها الأسرى)، وفي 25/ 03/ 2019م تم إطلاق صاروخ من غزة إلى شمال تل أبيب، وتعامل معه إعلام الاحتلال أنه دعم لقضية الأسرى، فبضغط من الفصائل الفلسطينية في غزة، وتدخل الجانب المصري العاجل لخطورة الوضع الآخذ بالتصاعد؛ قدم مكتب رئيس حكومة الاحتلال (نتنياهو) عرضًا وسطًا: تبقى بموجبه الأجهزة مكانها مع تخفيف قوتها، وتركيب تلفونات عمومية في القسمين، دون الدخول في التفاصيل، وكذلك دخل الممثل الأممي ميلادينوف على خط المفاوضات والضغط.

وافق الأسرى على هذا العرض غير أن إدارة السجون لم تلتزم به إلا في شهر أغسطس (آب) 2019م، فتم تركيب أربعة تلفونات عمومية في قسم (1) بسجن رامون، وأربعة في قسم (4) بسجن النقب بعد أن فرض مكتب رئيس الحكومة هذا الاتفاق على مصلحة السجون حيث كان قد أبدى جزء من ضباطها معارضتهم واعتبروه خضوعًا للأسرى الفلسطينيين.

ومع ذلك فإن مصلحة السجون كعادتها بدأت تتلاعب مرة أخرى في تطبيق الاتفاق: فهي لم تقم بتشغيل التلفونات بالرغم من وجودها بالقسم، ولم تخفف من قوة أجهزة التشويش، وصارت تتلكأ وتماطل في تنفيذ الوعود، وبعد أسبوعين من المفاوضات مع قيادات الأسرى، تبين للأسرى أنها لا تزال تماطل، حينها قام الأسرى الثمانية بعد أن رأوا هذا التعنت ومحاولات المماطلة بإعلان إضرابهم عن الماء _مسبوقًا بالطبع بإضرابهم عن الطعام_ في شهر سبتمبر (أيلول) 2019م.

وكعادتها مرة أخرى استجابت مصلحة السجون تحت ضغط الإضراب عن الماء بتقديمها حلًا وسًطا هي الأخرى؛ يقضي بإبعاد هذه الأجهزة قليلًا عن مكانها بحيث تخفف من حدتها، وبتشغيل التلفونات ثلاثة أيام في الأسبوع وربع ساعة لكل أسير في كل يوم من الأيام الثلاثة (أحد، ثلاثاء، خميس)، على أن يأخذوا من كل أسير بصمة صوته، وأن يكون الاتصال محصورًا بخمسة أرقام للأهل من الدرجة الأولى فقط، وبشرط أن يفحصها الشاباك ويوافق عليها.

ثم بعد عناء، انتهى الاتفاق بإتاحة الاتصال في ثلاثة أيام بين الأحد والخميس، على أن يبقى مجموع اتصالات الأسير 45 دقيقة فقط.

وصف الوضع الصحي الجسدي والنفسي للأسير المضرب عن الماء

لابد من التشديد منذ البداية أن الأوجاع والعوارض والعذابات التي يعانيها الأسير المضرب عن الماء متشابهة بين الأسرى المضربين إلى حد بعيد طوال أيام الإضراب غير أن شدتها وقسوتها على الأسير والقدرة على تحملها تختلف بين أسير وأسير آخر باختلاف صحة وقوة بنية جسم الأسير المضرب عن الماء، وهذا ما سيلاحظه القارئ من خلال الروايات الحية للأسرى فلا يظننَ إذن أن ثمة تناقضًا يتلبس الوصف أو الروايات.

(أ) الوضع الصحي الجسدي

في اليوم الأول:

يشعر الأسير المضرب عن الماء كما يشعر الصائم في اليوم الأول من شهر رمضان المبارك ببدايات وجع رأس، عطش، رغبة في الماء، وذهاب قليل للتبول غير أن المضرب يشعر إلى جانب ذلك بدوخة خفيفة وبدايات جفاف في الحلق.

بيد أن الأسير محمود مفارجة قد أيقظه وجع رأسه الشديد من نومه الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

في اليوم الثاني:

تبدأ بحق مرحلة المعاناة: يشتد العطش، ويتزايد الحلق جفافًا، فلا يشعر بلعاب في حلقه، أو كما وصفه الأسير عبادة أبوراس: «كنت أشعر بزوري أنه حجر ناشف»، ويريد النوم فلا يجده، ويشتد عليه وجع الرأس، ويشعر بهزال غير طبيعي، ولا يقوى على الحركة بسهولة لا بيديه ولا برجليه، يريد أن يبقى ممددًا على الفرشة، لكن بعضهم كان يقوى على الحركة، بل إن أحدهم (الأسير محمود نصار) كان يتمتع ببنية جسدية قوية بفعل اعتنائه به وممارسته للرياضة فكان ينظر للمسألة على أنها تحدٍ وصراع ولا يجوز أن يرى العدو منه ضعفًا، وكان يتمتع بروح قتالية عالية. وفي هذا اليوم تبدأ الإدارة تعرض عليهم محلولًا[1] مدعمًا عبر الوريد، فكان بعضهم يقبل والبعض الآخر يرفض.

في اليوم الثالث:

يتفاقم عنده وجع الرأس، وعند بعضهم يبدأ ظهور أوجاع في مفاصله جميعها: في ركبه ومرفقيه وكعبيه... الخ، وترتفع درجة حرارة جسمه، وبعضهم يشعر أن وجهه يتقد نارًا، ويتعاظم لديه جفاف الحلق إلى حد جعل الأسير عبادة أبو راس كما قال: «كنت لشدة جفاف حلقي أنهض الساعة الثانية ليلًا وأجرجر نفسي نحو الشباك، أحاول أن أستنشق الهواء، وأملأ فمي منه لأبل حلقي من الندى المشحون فيه، وكنت أشعر بعدها

(1) المحلول (إنفوزيا): سائل في كيس بوزن 250mg ، يغذي به وريد الأسير عبر الإبرة، ويحتوي معادن أساسية وأملاحًا وعناصر مدعمه أخرى حسب تقدير الطبيب بشرط موافقة الأسير نفسه، وتستمر عملية تغذية الوريد من ساعة إلى ساعة ونصف، ويبقى الأسير في عداد المضربين عن الماء.

بقليل من الراحة، وأحيانًا كنت أفكر في أن ألعق حديد الشباك بلساني لعلي أمتص ما اعتلاه من ندى». وتبدأ تخرج من فمه رائحة كريهة جدًا فضلًا عن الرائحة التي تنبعث من جسمه إما بسبب منعهم من الاستحمام لقطع المياه بالكامل من زنازينهم، وإما بسبب عدم دخول الماء إلى جوفه لدرجة أن السجان والطبيب كانا يحتفظان بمسافة منه إلا عند الضرورة ويزداد الاصفرار في عينيه.

في هذا اليوم من إضرابهم بات جميعهم يأخذ المحلول سوى اثنين: فهمي أبو صلاح، ومحمود نصار.

بالرغم من أن فهمي أبو صلاح[1] قد أغمى عليه في هذا اليوم، غير أنه ظل مصرًا على عدم تناول المحلول معرضًا عن جميع محاولات الضباط والطبيب في إقناعه.

في هذا اليوم كان أحدهم يشعر برغبة شديدة بالتبول، لكن عندما كانت تسترخي عضلاته للتبول فلم يكن ينزل منها شيء، وهذه الرغبة في التبول، كانت تذهب وتجيء لديهم ودون جدوى. وجميعهم في هذا اليوم لا يغادر فراشه إلا للضرورة إلا الأسير محمود نصار فما زال يحتفظ بقوته.

في اليوم الرابع:

في هذا اليوم فك جميعهم إضرابهم عن الماء مع بقائهم مضربين عن الطعام الذي ابتدؤوه أصلًا قبل شروعهم في الإضراب عن الماء[2]

(1) الأسير فهمي أبو صلاح يعاني أصلا اعتلالًا في صحته ولاسيما في قلبه، وأصر على دخول الإضراب عن الماء، فهو يعاني من عدم انتظام دقات القلب ومن الضغط ومن معدته.
(2) كان الأسير محمود إسماعيل حروب في يومه الخامس لكونه بدأ قبلهم بيوم.

وكانت إدارة السجن تعتزم إعطاءهم المحلول لو استمروا يومًا بعد يوم، وظل محمود نصار في هذا اليوم مصرًا على عدم تناول المحلول وقادرًا على الحركة ذهابًا وإيابًا في داخل زنزانته معتزًا بقوته أمام السجان وواثقًا جدًا بجسمه، وكانوا كلما عرضوا عليه المحلول يرد عليهم: «أنا لا أثق بكم فأنت كطبيب ومساعدك ترتديان زي مصلحة السجون، وعند أي صدام مع الأسرى ترتدون الدرع لمواجهتهم مع باقي السجانين».

أما فهمي فلم تسعفه صحته، فقد شعر أن الوجع قد انتشر في كل أنحاء جسده؛ إذ كان يشعر أن إبرًا تخزه في كل مكان فيه، وكان الوجع الأشد في وسطه إلى أسفل قدمه. واستطرد فهمي قائلًا: «وكنت أتنقل من صعوبة إلى صعوبة، غير أن الصعوبة الأشد التي كانت دومًا ترافقني هي عدم عثوري على ريق في حلقي أبلعه، إنه جفاف الحلق القاتل».

استسلم الأسير فهمي أبو صلاح في يومه الرابع لجسده المنهك بالأوجاع، وقبل أن يتناول المحلول مع احتفاظه بمعنوياته العالية قال: «ومن لحظة تغذية وريدي بالمصل شعرت أن الحياة تسري في أنحاء جسمي من أعلى إلى أسفل ببطء لذيذ منعش لخلاياي المتهالكة».

جميع الأسرى الذين تناولوا المحلول شعر الواحد منهم مباشرة بعده بارتياح وانتعاش واستعادة لبعض قواه وطاقاته، فكان يستطيع أن ينهض بيسر للصلاة وما فاته منها، ويستطيع أن ينام ويتمكن، وهنا الأهم، من التبول بأريحية ويشعر بابتلال حلقه وعودة بعض الريق والحياة إليه.

كان مفعول المحلول يدوم عند البعض أمثال: عبادة أبو راس، عودة

حروب، وفهمي أبو صلاح، من ثلاث إلى أربع ساعات فحسب، ثم تعود للمضرب نفس الأوجاع والإرهاق وجفاف الحلق، وفقدان القدرة على التبول مع وجود الرغبة، ويعود إلى ممارسة أحب شيء إليه وهو الارتماء على السرير، يتمنى النوم ولا يجده. أما بعضهم الآخر كالأسير محمود إسماعيل حروب والأسير محمود مفارجة فلم تعاودهما الأوجاع أو الإرهاق بعد تناولهما المحلول، قال محمود حروب: «لم أشعر بتعب خاص بسبب الإضراب عن الماء، ولا أظن أن المحلول ساعدني سوى أنه أراحني نفسيًا وطمأنني على أعضائي الداخلية». كان محمود يتمتع بصحة جيدة ولا يعاني من أي مرض، أما محمود مفارجة فقد صرح أن وجع الرأس الذي داهمه في أول ليلة لم يعد إليه.

في اليوم الخامس:

لم يتبق مضرب عن الماء من الأسرى غير الأسيرين فهمي أبو صلاح ومحمود نصار، في هذا اليوم بدأ محمود يشعر بالتعب والإرهاق، ولكن دون أوجاع محددة، وظل يتظاهر بعنفوانه وثباته أمام السجان، وظل يرفض عروضهم لتناول المحلول.

أما الأسير فهمي فصحيح أنه تناول المحلول من اليوم الرابع إلا أنه لم يكن يقبل تناوله كلما عرضوه عليه، وإنما كان يتقبله كلما بدا له أنه على مشارف الموت، وذلك حتى يبقيهم في حالة توتر وقلق مستمرين.

كان فهمي وهو يعض على أوجاعه متشبثًا بإصراره على الصمود يبحث عن أي شيء يشبه الماء يأخذ منه ولو لعقة واحدة غير أنه لم يجده،

لكنه عند التحدي كانت روحه هي التي تنتصر؛ إذ عندما كان يدخل عليه الطبيب ليتفقده يفتح أمامه قنينة كولا متعرقة برودة ويعرضها عليه إلا أنه كان يزداد إصرارًا على رفضه، وكذلك يتصرف عندما كان السجان يجلب معه ماءً باردًا، لكنه قال: «لكن في الوقت نفسه، عندما كانوا يقومون بفحص السكر لدي كنت أنتظر خروجهم من عندي، ثم أبدأ أعتصر مكان وخزة الإبرة لعلي أحظى بنقطة دم أبلل بها حلقي شديد الجفاف، ولكن حتى هذه لم أكن أجدها، ومع ذلك، كلما عادوا لإجراء فحص السكر، تعاودني الفرحة نفسها بالفرصة الجديدة، متناسيًا الخيبة التي سبقت، وسرعان ما تنطفئ لدي أنوار فرحي من جديد، وتخمد في نفسي الآمال».

في اليوم السادس:

في هذا اليوم قرر الأسير فهمي ألا يتناول المحلول، وأصر على أن يبقى مع أوجاعه دون استراحة 3 – 4 ساعات ليضمن بقاء التوتر عندهم عاليًا.

أما الأسير محمود نصار فمنذ الصباح الباكر شعر أنه ليس محمود الأمس؛ لقد خذله جسده، كأنه لم يصدق لفرط ثقته بقوته وصحته أنه الآن طريح الفرشة لا يستطيع النهوض، لقد خارت قواه بالكامل. قال: «شعرت بتعب حقيقي وكأن إنهاك الخمسة الأيام الماضية جاءني مجتمعًا دفعة واحدة وحل بي، أكاد لا أرى من الغبش، وأشعر بالدوخان، وكنت أشعر كأن رأسي تلقى ضربة قوية، وفجأة سمعت صوت السجان أو الطبيب يسألني عن وضعي، فقلت: تعبان، وهذه أول مرة يروننني على هذا الحال».

عندما رأوه على هذا الحال قاموا بفحصه فورًا، وعند رؤيتهم للنتائج

قالوا له: «بقي لك مستوى واحد _يبدو أن الحديث عن عمق الجفاف الذي يتعرض له جسمه_ وإذا لم تتناول المحلول فإن كثيرًا من أعضائك الداخلية معرضة للانهيار، وإن حياتك تدخل دائرة الخطر». فأعاد عليهم ما كان دومًا يردده: أنه لا يثق بهم، ولا يأخذه إلا في مستشفى خارجي، فلم تمر أكثر من خمس دقائق حتى حضرت سيارة الإسعاف لنقله إلى المستشفى، وكان الممرضون في سيارة الإسعاف يتكلمون معه ويطلبون منه أن يكرر عليهم اسمه، وذلك لكي يبقى بوعيه غير أنه أغمي عليه عدة مرات وهو في طريقه إلى المستشفى، وكان مما ذكره أن الممرض كان بأصابعه يرطب شفاهه بسائل ما ويدلكون يديه. أضاف محمود: «عندما أدخلونني إلى المستشفى وأنا على السرير النقال رأيت جنودًا للاحتلال يُعالجون، فقلت في نفسي، هم أيضًا مصابون ويُعالجون. ولقد شعرت عندها أن كل عوامل التحدي وكل أبعاد الصراع مثلت أمامي فأصررت على عدم تناول المحلول، ومع ذلك كنت أعتصم بالصمود حتى لا يسمعوا مني كلمة توجع واحدة».

كان محمود وهو على سريره في المستشفى يشعر بإرهاق شديد، شبه معطل التفكير، كثافة الغبش في عينيه تتسابق مع لون الاصفرار فيهما، قواه منهارة بالكامل.

قبل نقله إلى المستشفى كان قد اتخذ قرارًا بأن يتناول المحلول بالمشفى غير أنه وهو هناك واقع تحت محاولات الإقناع من أطباء المستشفى؛ رفض أن يتناوله أولًا بسبب رؤية الجنود، وثانيًا أراد أن يثبت لهم أنه لا يزال مقاتلًا، ولا يريده اليوم كيلا يظهر ضعيفًا وأن قراره بيده هو، وتحت تصرفه، بيد أن الأسير محمود قد تناول المحلول في آخر نهار اليوم السابع.

في اليوم السابع:

في هـذا اليـوم لم يكـن جسـد الأسـير محمـود نصـار قـادرًا عـلى مجـاراة عزيمتـه وروحـه المقاتلـة، وحـدّث نفسـه: «إنـه وبإضرابـه عـن المـاء في عمليـة نضاليـة وليـس في عمليـة انتحاريـة»، فأخـذ المحلـول وهـو بالمستشـفى، ثـم بعـد تواصـل مسـئولي تنظيمـه بـه ومطالبتهـم لـه بـأن يفـك إضرابـه عـن المـاء، اسـتجاب لطلبهـم وعـاد إلى شرب المـاء مـع بقائـه مضربًـا عـن الطعـام، ثـم أعـادوه إلى سـجن نفحـة منضـمًا إلى زنازيـن زملائـه المضربـين عـن الطعـام.

أمـا الأسـير فهمـي أبـو صـلاح فقـد قـرر أن يتنـاول المحلـول في هـذا اليـوم، وكان يستشـعر في كل مـرة قبـل تناولـه أن جسـمه بـدأ يتهيـأ داخليًـا لـه، ويعتقـد أن المحلـول فعـلًا إنقـاذ للحيـاة، إنقـاذ لحياتـه بمجـرد التفكـير بمفاعيل المحلـول الإيجابيـة ولـو لثـلاث أو أربـع مـرات كان يسّـهل عليـه تحمـل الآلام.

لكـن المحلـول الـذي كان يتناولـه الأسـير فهمي ممـزوج بمعادن أساسـية وعنـاصر مدعمـة بموافقـة فهمـي، أمـا الأسـير محمـود نصـار فاشـترط عليهـم ألا يكـون فيـه إلا مـاء وصوديـوم.

في اليوم الثامن:

شـعر الأسـير فهمـي أبـو صـلاح أنـه منهـك ومتوجـع جـدًا، فقـرر أن يتنـاول المحلـول.

في اليوم التاسع:

لم يتنـاول الأسـير فهمـي المحلـول، فشـعر أنـه متهالـك، وعـلى وشـك

الموت، «كنت لا أدري أي الوجع أشد، ذلك الذي يصدر من كبدي؟ أم من الكلى؟ أم من ركبي ومفاصلي؟ أم من رأسي وعيني أم منهما جميعًا»، واستطرد قائلًا: «فبدأت أستحضر من مخزون الذاكرة أتعس لحظة في حياتي وأشدها حزنًا وأسى لأتحايل بها على عيني، عسى أن أحظى بقطرة دمع أبلل بها حلقي، لكن للأسف حتى هذه لم أكن أجدها».

في اليوم العاشر:

في هذا اليوم وبعد تدخل مسئولي تنظيمه؛ وافق الأسير فهمي على أن يتناول المحلول وأن يفك إضرابه عن الماء، ويبقى مضربًا عن الطعام، لكنه بعد تناوله الماء، وبسبب اعتلالات صحته، صار يشعر بمعدته كلما وصل إليها الماء أنها تشتعل نارًا، ولم يعد جسمه يستقبله فكان يستخرجه متوجعًا، مما اضطرهم إلى نقله للمستشفى الخارجي، وبعد أيام من المعالجة أعادوه للزنزانة بقدرة أفضل على تلقي الماء.

(ب) الوضع النفسي

العامل النفسي عند الأسير يشكل أهم متغير في موضوع الإضراب حيث هو منبع الإرادة والقرار والإصرار، فعندما يحسم الأسير أمره ورأيه في خوض الإضراب عن الماء يكون قد استجمع كل طاقاته المعنوية والعقلية والقلبية، فيذهب إلى الإضراب مسلحًا بروح قتالية ونفسية صدامية معاندة، وبوعي كامل بهدفه الإنساني الذي يقدم له كل ما قد يترتب على صحته منه، بل أنه يدرك بإمكانية تقديمه له أعز ما يملك، وهي حياته.

فالأسير المضرب عن الماء سيتعرض من لحظة إعلانه عنه إلى ضغوطات نفسية داخلية وخارجية للنيل من عزيمته وإصراره ولكسر إرادته وتحطيم معنوياته.

أولًا: الضغوطات النفسية الداخلية:

1. أقسى هذه الضغوطات حالة الغموض والمجهول الذي هو ذاهب إليه بقدميه، وبمحض إرادته، فهذه تجربة أولى له، ولا يعلم قدرة جسده على التحمل، مما يجعله في عتمة من أمره، فضلًا عن انعدام ثقته بإدارة السجن وبكيفية تعاملها معه.

2. عند شروع الأسير بالإضراب عن الماء؛ يشعر أن جسمه دخل في حالة طوارئ، ولا يعلم كنهها غير المضرب، وهذه الحالة تحاول أن تنال من معنوياته، وخصوصًا إذا تسلل إلى نفسه التخوف على أعضائه الداخلية.

3. إذا ما دخل الأسير دائرة حسابات الزمن فسيشعر بالدقيقة دهرًا، وسيستطيل الطريق ولو قصرت، فهذه الحسابات إذا استسلم لها فستنهش نفسيته وتعمل على تآكل معنوياته، كما قال الأسير محمود نصار: «يجب على المضرب _بعد التجربة_ أن يلغي عامل الزمن من رأسه».

ثانيًا: الضغوطات النفسية الخارجية:

1. أول عمل تقوم به إدارة السجن حيال المضرب عن الماء هو عزله في زنزانة انفرادية عديمة الماء، بعيدًا عن باقي الأسرى، ومقطوعًا عن العالم الخارجي.

2. تعمد إلى حجبه عن أي تواصل أو اتصال مع مسئوليه أو مع أي أسير آخر حتى يبقى في فراغ من المعلومات عن محيطه وعن آخر التطورات.

3. استغلال هذا الفراغ من الإدارة وإغراق الأسير بالإشاعات المثبطة والمحبطة حول مسئوليه وباقي رفاقه المضربين، من قبيل: أنهم تخلوا عنك، أو أن رفاقك قد فكوا إضرابهم وغيرها، وجميعها لأجل خداعه وكسر إرادته وفك إضرابه.

4. محاولات إغراء مستمرة بإحضار ماء بارد يشربونه أمام المضرب باستمتاع استعراضي ثم يعرضونه عليه، وكذلك مع الكولا المتعرقة الجاذبة ببرودتها.

5. محاولات الأطباء والممرضين المستمرة في إقناعه بالتوقف وشرب الماء بسبب المخاطر الفادحة والمحدقة بجسده إذا استمر في إضرابه عن الماء.

6. تعمد الإدارة إلى الدق على باب الزنزانة كل ساعة لكي يسلبوه حتى محاولاته بالنوم الذي لم يأت أصلًا، وعند احتجاجه عليهم يردون عليه بأن يفك إضرابه عن الماء إذا ما أراد النوم.

تعاطي الحركة الوطنية الأسيرة مع فكرة الإضراب عن الماء

خطوة الإضراب عن الماء تجربة جديدة للأسرى الفلسطينيين، وهي لم تخضع حتى الآن لنقاش جماعي وجدي عميق وعلمي من قبل الأسرى؛ لذلك فهي لم تجد مكانها الثابت بعد في صندوق أدواتها النضالية؛ إذ لم يخض هذه التجربة حتى الآن إلا أسير قد أخذها على عاتقه الشخصي بعيدًا عن قرارات التنظيم.

علمًا أن أسرى الجهاد الإسلامي، وتحديدًا بعد تضييق الخناق عليهم، وتوزيعهم في سائر الأقسام في شهر سبتمبر (أيلول) 2021م بسبب نفق الحرية وفرار الأسرى الستة من سجن جلبوع؛ قد هددت قيادتهم إدارة السجون في يومهم الأول من إضرابهم عن الطعام أن هناك مائة أسير منهم جاهزون للإضراب عن الماء عند وصولهم لليوم العاشر في إضرابهم عن الطعام.

غير أن إدارة السجون صاحبة التجربة عام 2019م مع إضراب الأسرى العشرة عن الماء؛ استبقت ساعة الصفر واستجابت لمعظم مطالبهم في صباح اليوم العاشر، ففكوا إضرابهم عن الطعام، ولم يضطروا إلى خوض الإضراب الجماعي عن الماء الأول من نوعه.

إن الأسرى الذين خاضوا الإضراب المفتوح عن الماء خاضوه بقرار فردي، وكان جميعهم من أسرى حماس والجهاد الإسلامي، فكان الأجدر بهذه التجربة أن تحظى لدى نخبهم الفكرية والتنظيمية بنقاش علمي وبحث ودراسة وجدية من حيث المعنى والجدوى والآثار على المستويات كافة.

لقد انتظر وترقب عموم الأسرى بشوق لافت وفضول حارق عودة المضربين عن الماء حتى يتسنى لهم معرفة نتائجه وآثاره، فضلًا عن حصاده.

فالتجربة إذن ما زالت في بدايتها بالنسبة للقاعدة وللقيادة، والكل يستكشف ويستطلع هذا الإضراب بكل أبعاده، وإن أراء القيادات التي سنعرض لها لاحقًا تعكس تخوفًا وتحفظًا وترددًا ما، مرده افتقادهم لتصور واضح عنه لجدة التجربة[1].

فثمة رأي لإبراز قيادات الحركة الوطنية الأسيرة يرى أنه لا يمكن الرفض القاطع للإضراب عن الماء أو قبوله الجازم، وإنما التعامل مع بحذر وذكاء كوسيلة نضالية متكاملة مع وسائل نضالية أخرى، «فإن استخدام هذه الوسيلة من قبل النخبة القيادية للإضراب بشكل منهجي محسوب يؤثر على خفض سقف الإضراب (عن الطعام) الزمني، والتسريع بتحقيق أهدافه يرفع درجة الضغط على مديرية السجون».

واستطرد قائلًا: «إن جدوى الامتناع عن الماء أثناء الإضرابات

(1) جدير بالذكر أن الأسير الباحث أيمن عاشور سدر قام ببحث جدي حول تجربة الإضراب عن الطعام عام 2019م، وركز فيه تحليلًا ودراسة على كفاءة وفاعلية القرارات الاستراتيجية المتعلقة به، وتطرق أثناءه إلى تجربة الإضراب عن الماء، وقدم توصياته وبعض استخلاصاته من الإضراب عن الماء، والتي سأعرضها في الخاتمة والتوصيات.

العامة يحددها مدى الدقة في استخدام هذا الأسلوب ومستوى صلابة وتماسك النخبة التي يتم اختيارها لتنفيذ هذه المهمة».

ثم أضاف قائلًا: «وبهذا المعنى فإن الإضراب عن الماء أثناء الإضرابات العامة هو الاستثناء وليس القاعدة خاصة عندما نتحدث عن إضراب جماعي وليس فرديًا أو نخبويًا، وتداول الأسرى لهذا الموضوع أو التلويح به واستخدامه الجزئي لا يعني بالضرورة السعي لاستبدال الإضراب العام عن الطعام بالإضراب عن الماء، فأشكال الإضراب ووسائله الجزئية مترابطة ومتكاملة لدى استخدامها عند الضرورة، فلا معنى للإضراب عن الماء بمعزل عن الإضراب عن الطعام[1].

ورأي آخر لأحد قيادات الحركة الأسيرة هو أن: «الإضراب عن الماء أخطر، ومن يدخل في هذا النوع من الإضراب فإنه في طريق الشهادة وهذا مؤكد، فهل سنجد الأعداد المستعدة للذهاب إلى الشهادة إذا تطلب الظرف»؟

فيجيب عن سؤاله: «قد نجد، وأعتقد أن ذهاب الأسرى لهذا الخيار الصعب يكون بعد نفاد كل الخيارات ولابد من خوضه»[2].

وإن بعض هذه القيادات التي قادتها الظروف لأن تكون في موقع المسؤولية إبان إضراب الأسرى عن الماء 2019م، أعربت عن معارضتها الشديدة له رغم اعترافها بقوة تأثيره، وان كان جماعيًا على إدارة السجون.

إذ إن هذه القيادات ترى أن إظهار قوة الأسير المعنوية والنفسية

(1) سعدات، أحمد. الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأبرز قيادات الحركة الوطنية الأسيرة.
(2) الطوس، محمد. أبرز قيادات حركة فتح.

والشكلية أمام العدو جزء مهم من أدوات المواجهة مع السجان، فهو لا يعارض فقط بالإضراب عن الماء بل بالإضراب عن الطعام[1].

وثمة قيادات تعتبره قاسيًا جدًا، ومكلفًا للغاية، لذلك فهي تعارضه بشدة إلا في حالة واحدة: أن يكون المطلب هو الحرية[2].

وآخر يعارضه بشدة لفداحة آثاره الصحية غير أنه يؤيده إذا ما كان جماعيًا بحيث يشمل عددًا كبيرًا من الأسرى ليكون فعالًا وضاغطًا بحق على إدارة السجون[3].

وهناك رأي رآه الكثير من الأسرى متوازنًا ويقارب الواقع؛ إذ يرى في الإضراب عن الماء: «أحد الأدوات النضالية التي يمكن أن يكون لها مفعول قوي، وهذه الأداة أحيانًا يكفي التلويح بها إن لزم، أو الدخول المنضبط جدًا إليها إن لزم، أو عدم وضعها في خطة ما إذا لم يكن لها حاجة[4].

وثمة رأي يرى أن إدارات السجون تفضل الإضراب عن الطعام على بعض الخطوات وهي من خلال تجربة 2019م، تخاف إلى حد لافت من الإضراب عن الماء لما يحمل لها من مخاطر وتحديات ولاسيما مفاعيله على المستويات الأمنية والسياسية في الداخل، وفي غزة والضفة، فضلًا عن ساحة السجون؛ لذلك فهو مع الإضراب عن الماء إذا ما كان جماعيًا[5].

«فقد أصبح أهم عامل لإنجاح التلويح بالإضراب، أو تقصير

(1) الشحرور، معمر. أحد قيادات حماس.
(2) الشريم، مهند. من أبرز قيادات حركة حماس.
(3) أبو عيشة، مهند. أحد قيادات حركة الجهاد الإسلامي.
(4) السيد، عباس، أحد أبرز قيادات حركة حماس.
(5) جرادات، أنس، من أبرز قيادات حركة الجهاد الإسلامي.

مدته إن اضطر الأسرى للدخول فيه؛ نضوج الظروف في الخارج وبالذات على جبهة غزة ودخول المقاومة على خط دعمه، أي ربط الاستقرار في السجون بالاستقرار على جبهة غزة بالذات، والجدية في ذلك[1].

وهناك مقاربه لأحد القيادات يراها الباحث مرآة صادقة تعكس مدى اضطراب الموقف لدى قيادات الحركة الأسيرة إذ قال: «برأيي لم نصل بعد إلى الحاجة لمثل هذا الشكل من الإضراب، لسنا بحاجة له من الأصل، وذلك أولًا: لأنه لم يجر اختبار نجاعته على نحو واسع، وثانيًا: لما يتركه من آثار صحية خطيرة على الأسير المضرب قد تصل إلى حد الاستشهاد، وثالثًا: لأن الإضراب المفتوح عن الطعام؛ أي التقليدي مثَّل حاله ناجعة وكافيه لإبراز المطالب والحقوق وانتزاعها».

ثم استطرد في الوقت نفسه قائلًا: «رغم أن الإضراب عن الماء يشكل إرباكًا لمصلحة السجون، وقد يقصر من أمد المعركة إلا أنه ينبغي أن يظل خيارًا أخيرًا، ويكفي التلويح به، وخوضه إذا استدعت الضرورة ليومين على الأكثر، وذلك حفاظًا على سلامة وصحة الأسير».

إلا أنه عاد وقال: «أنا شخصيًا، وبناء على الاعتبارات السالفة، أرفض هذا الشكل من الإضراب، وأفضل عليه الأشكال النضالية الأخرى وخاصة الإضراب المفتوح عن الطعام بصيغته الجماعية»[2].

أما آراء الأسرى الذين صنعوا هذه التجربة فهي الأخرى تعاني من اضطراب وبعض التخبط، وإن الأسير محمود نصار هو أكثر من يعكس

(1) السيد، عباس.
(2) أبو حنيش كميل، من أبرز قيادات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

هذا التخبط، فتارة يقول عنه إنه ضرب من الجنون: «وأنا ليس فقط رأيت الموت في إضرابي عن الماء ثم رجعت، بل ذقت الموت ثم عدت». وتارة يزعم أن الإضراب عن الماء أمضى سلاح ضد مديرية السجون، «فهي لا تعرف كيف تتعامل معه، فالاستجابة للمطالب ستكون في متناول اليد، والإضراب عن الماء يغيظهم أكثر؛ لأنك كمضرب عن الماء رغم قسوته تظهر بمظهر القوي المزود بسلاحي المفاجأة وحداثة الأداة».

أما الأسير عبادة أبو راس الذي أضرب عن الماء أربعة أيام _مع تناول المحلول_ فقد أيّد هذا الإضراب كونه يستنزفهم ويربكهم؛ إذ قال: أنصح الحركة الأسيرة أن تعتمد الإضراب عن الماء بدلًا من الإضراب عن الطعام».

تعاطي جماهير الشعب الفلسطيني مع تجربة الإضراب عام 2019م

لم تصل تجربة الإضراب عن الماء 2019م إلى أوساط الشعب الفلسطيني بكافة مستوياته ليتسنى لهم التعاطي معها شعبيًا وتضامنيًا، أو تحليلها وتداولها إعلاميًا؛ ذلك لأن الإضراب لم يكن بقرار تنظيمي ولم يكن بأعداد كبيرة بحيث يمكن تجاهله؛ لأنه لو كان تنظيميًا فسيترتب عليه إعداد مسبق مع الدوائر المؤثرة في أوساط الشعب الفلسطيني، ولو كان بأعداد كبيرة لاضطرت الفصائل الفلسطينية لتبنيه وتفعيل الخارج بكل قوة لتأمين نجاحه.

أي أن الإضراب عن الماء عام 2019م كانت أحداثه في السجن، وبقيت بكل آلامه وتداعياته داخل أسواره، وظل مجهولًا إلى هذه اللحظة 2022م لأبناء الشعب الفلسطيني بكافة شرائحه.

تعاطي إدارة سجون الاحتلال مع حالات الإضراب عن الماء عام 2019م

أكثر جهة أربكها الإضراب عن الماء هي إدارة السجن؛ إذ لم يسبق لها أن تواجهت مع هذا النوع من الإضراب. فمقاربتها لهذا النهج من الإضراب لم تنضج بعد، فإن كانت إدارة السجون قد احتاجت إلى عشرات السنين في صراعها مع الحركة الوطنية الأسيرة حتى استطاعت أن تبلور تصورًا واضحًا عن الإضراب عن الطعام؛ بحيث باتت تشعر عند مواجهته بثقة عالية جدًا بالسيطرة عليه، وبقدرتها على إدارته ببصيرة مهنية لافتة، ودون خوف أو تردد، فلا عجب أن نراهم يتركون المضربين عن الطعام يكابدون معاناة وألم أمعائهم الخاوية لعشرات الأيام، وأحيانًا يزيد عن مائة يوم قبل النظر في مطالبهم. فكم من السنين إذن سيحتاجون لتراكم الخبرات والمعرفة من أجل بلورة تصورهم عن الإضراب عن الماء؟!

إدارات السجون لا تزال إلى هذه اللحظة في حالة استكشاف لهذه التجربة، وبداية جمع البيانات حولها، ولربما تكون قد اكتسبت بسبب خبرتها مع الإضراب عن الطعام الآليات والمناهج التي قد تساعدها في اختصار الزمن لدراسة هذه التجربة وتحليلها وفهمها، ثم بلورة تصور واضح عنها يمكنها من السيطرة السريعة عليه (انظر التوصيات لاحقًا).

في إضراب 2019م واجهت إدارة السجون شكلين من الإضراب عن الماء، وكانت مع أحدهما أشد ارتباكًا من الآخر، والشكلان هما:

1. الأسير المضرب عن الماء يقبل أن يتناول المحلول المدعم، مع بقائه قانونيًا في عداد المضربين عن الماء، ما دام لم يتناول الماء من محله الطبيعي (فمه). فهذه الطريقة بالنسبة لإدارات السجون تؤجل فيه انهياراته الداخلية، مما يكسبهم الوقت والجهد لمزيد من الضغط والمساومة.

ويجدر التأكيد هنا إن إدارات السجون لا تجبر الأسير المضرب عن الماء على تناول المحلول أو الماء، ويضبطها في ذلك قانون نقابة الأطباء الذي يحكم أطباء السجن، وهي لم تجبر أي أسير ممن تناول المحلول على أخذه وإنما بإرادتهم وقناعتهم، وهذا بشهادة كافة الأسرى الذين تناولوا المحلول عام 2019م.

2. في الشكل الثاني يصر فيه الأسير على امتناعه عن تناول المحلول، فيكون بذلك ممتنعًا عن الطعام وعن الماء وعن المحلول أو مدعم آخر؛ أي لا يدخل جوفه شيء لا من فمه ولا أوردته البتة حتى الموت أو الاستجابة لمطالبه.

في إضراب 2019م واجهت إدارة السجون الشكلين من الإضراب عن الماء، وارتباكها كان قاسيًا، ولاسيما مع الشكل الثاني دون أن يفارق الارتباك والتوتر الشكل الأول، وقد تجلى ذلك في خطواتها وإجراءاتها حيال المضربين عن الماء من الشكلين، وكانت على النحو التالي:

1. في البداية يعلن الأسير للسجان بداية إضرابه عن الماء.

2. يواجّه من الإدارة باللامبالاة المتعمدة.

3. ثاني يوم مع عدد الصباح، ثم المساء يتم إخضاعه للفحوصات من قبل ممرض السجن المرافق لعملية العدد.

4. وفي الفحص الأول (دقات قلب، أكسجين، ضغط...) يحاول الممرض إقناع الأسير بالعدول عن إضرابه عن الماء لخطورته على صحته وخصوصًا أعضائه الداخلية.

5. في الفحص الثاني يحاول أن يتبيّن الممرض من نتائج الفحص إن كان الأسير حقًا مضربًا عن الماء، فعندما يتأكد، يحاول بكامل الجدية أن يشرح له العواقب الفادحة على صحته حتى لو بقي حيًا إذا ما استمر بالإضراب.

6. بعد تأكده من إصرار الأسير على الاستمرار؛ يبلّغ إدارة السجن بجدية وحقيقة إضراب الأسير عن الماء.

7. فمن فور تلقيها البلاغ تدخل الإدارة في حالة طوارئ وإرباك، وتبدأ عملية التوافد عليه من قبل الضباط والسجانين حتى مدير السجن فضلًا عن طبيب السجن ومساعديه لإقناعه بالعدول عن إضرابه عن الماء مع بقائه مضربًا عن الطعام.

8. ثاني يوم، وأحيانًا في اليوم الثالث ينقلون الأسير المضرب عن الماء إلى زنزانة انفرادية بعيدًا عن زملائه الأسرى المضربين عن الطعام حتى لا يؤثر عليهم بوجوده بينهم، فيضربوا معه فيتفاقم إرباكهم، وتتعاظم مشكلتهم.

9. يوضع في زنزانة خالية من أي شيء سوى فرشة وبطانية واحدة، ودون مخدة، ويبقى وحيدًا يجابه الغامض والمجهول.

10. يُقطع عن زنزانته أي مصدر للماء حتى دورة المجاري، فلا ماء للوضوء أو غسل الوجه واليدين فضلًا عن الاستحمام.

11. هؤلاء الأسرى العشرة تم نقلهم مع مضربين آخرين إلى سجن نفحة من الغرف، لكن بعد إعلانهم إضرابهم عن الماء تم نقلهم مرة أخرى من سجن نفحة إلى الزنازين الانفرادية في سجن إيلاه في بئر السبع.

12. تستمر محاولاتهم لإقناع الأسير على مدار الساعة بأن يأخذ على الأقل المحلول المدعم، يتوافد عليه من أصغر سجان إلى ضابط استخباراتهم إلى مدير السجن، وأحيانًا يأتونهم من بيوتهم بلباسهم المدني.

13. كما سبق وتبين، فإن معظم الأسرى يقبلون أخذ المحلول في اليوم الثالث أو الرابع.

14. يأخذون الأسرى تتابعًا الواحد تلو الآخر إلى عيادة السجن لتناول المحلول مقيدين بأيديهم وأرجلهم رغم إرهاقهم وعدم قدرتهم على الحركة إلا بشق الأنفس.

15. تستمر مفاعيل المحلول 3 – 4 ساعات، ثم يعود إلى أوجاعه ومعاناته. وفي اليوم التالي أو الذي يليه حسب قرار الأسير يتناول المحلول مرة أخرى. هذا كله دون التوقف عن ممارسة الحرب النفسية عليه، ودون التوقف عن محاولات إقناعه بالحسنى، وحتى الطبيب صاحب المهنة ذات

الطابع الإنساني بامتياز كان يمارس الحرب النفسية عليه، فكان الأسير يدخل إلى غرفته فيجد على الطاولة أمامه قنينة كولا، فيفتحها بحضوره مع سماع صوت صفيرها الخلاب.

16. تحرص إدارات السجون على أن تُقحم على الأسرى المضربين وحدتهم الخاصة إلى زنازينهم الخالية أصلًا من أي شيء، ويجرون على الأسير التفتيش العادي رغم عجزه، وأحيانًا يجلبون وحدة (متسادا)[1] للزنازين؛ لكسر إرادتهم والحط من معنوياتهم، وفي معظم الأيام يقتحمون زنازينهم للتفتيش (أي للاستنزاف) مرتين في اليوم.

17. طوال الأيام يقومون بإجراء فحوصات للمضرب عن الماء مرات عديدة خلال الليل والنهار غير أن وتيرة الفحوصات للممتنع عن تناول المحلول متقاربة جدًا خشية حدوث انتكاسة مفاجئة في صحته وتعرضه لخطر الموت.

18. من المهم التوضيح أن إدارة السجن لا تنقل الأسير المضرب عن الماء إلى مستشفى خارجي، سواء الذي يتناول المحلول أو الممتنع عنه غير أنها قد تنقله إلى عيادة سجن الرملة حيث تتوفر فيه بعض المعدات الطبية اللازمة للمتابعة إذا ما أحست فيه بعض التدهور، لكنها تنقله إلى مستشفى خارجي من زنزانة السجن أو من زنزانة عيادة سجن الرملة عندما تشير الفحوصات أنه وصل إلى حالة الخطر كما حصل مع الأسير محمود نصار

(1) وحدة متسادا: هي وحدة خاصة عالية التدريب، مختصة بالاقتحام والسيطرة، مهمتها الأساسية السيطرة على الوضع وإعادة الأمن في حال تم تحديه من الأسرى غير أن مصلحة السجون تكثر استعمالها في اقتحام غرف الأسرى للتفتيش، كمحاولة منها لنشر الرعب بينهم، ثم تقييدهم بأيديهم، فالخروج منها بعد دقائق ليأتي دور الوحدات الأخرى للتفتيش.

في يومه السادس حيث نقلوه إليه مباشرة من زنزانة سجن إيلاه، وكما تم نقل الأسير بهاء العدم من إيلاه إلى أقرب مستشفى خارجي عندما حصل تدهور خطير جدًا في عينيه وقدرته على الرؤية.

19. طبيب السجن هو من كان دومًا يقوم بالفحوصات للأسير بعد اليوم الرابع، ولا يعتمد على أي من مساعديه لخطورة الوضع، ولربما ليطَّلع على نحو مباشر على حالة الأسير، وجمع البيانات ونتائج الفحوصات للدراسة والتحليل مع طواقم مختصة لفهم جميع أبعاد هذا الإضراب.

تعاطي وسائل إعلام الاحتلال مع الإضراب عن الماء 2019م

إذا كانت جماهير الشعب الفلسطيني الوفية دومًا للحركة الأسيرة والحاضنة لأوجاعهم بلا كلل؛ قد خفي عنها إضراب هؤلاء الأسرى العشرة عن الماء فمن المؤكد ألا تصل أصداؤهُ إلى إعلام الاحتلال الإسرائيلي؛ إذ إن هذا الإعلام أصلًا مجند، بلا ريب، لصالح أجندة الاحتلال واستمرار سيطرته في جميع الساحات.

ناهيك عن أن إعلام الاحتلال ومن خلال استقراء لتجارب الماضي كان دومًا يتخلف في تغطية إضرابات الأسرى الفلسطينيين عن الطعام عن تغطية الإعلام الفلسطيني له لأسابيع كاملة.

خاتمة

أول تجربة إضراب عن الماء كانت عام 2019م خاضها عشرة أسرى فلسطينيين في سجن رامون، ينتمون جميعهم إلى حركتي حماس والجهاد الإسلامي.

السبب المباشر الذي فجَّر الإضراب عن الماء عام 2019م كان منظومة التشويش المرعبة التي استوردتها دولة الاحتلال من بريطانيا، وركبتها في سجني رامون والنقب في قسم (1) وقسم (4) على التوالي، خصيصًا لأجل منع الأسرى الفلسطينيين من التواصل مع ذويهم عبر الجوالات المهربة، وما شاع بينهم أن أشعتها تسبب الإصابة بالسرطانات، فكان شعارهم: «إزالة الأجهزة الفتاكة أو الموت دونها».

لم تصل الحركة الوطنية الأسيرة بكافة فصائلها إلى موقف حازم حيال كون الإضراب عن الماء تجربة جدية فهي لم تبلور إذن تصورًا واضحًا عنه غير أن الأسير أيمن سدر ببحثه الذي أنجزه في أعقاب التجربة عام 2020م جعل الإضراب عن الطعام والإضراب عن الماء تحت طائلة قلمه ونقده وتحليله، فوصل إلى نتيجة أن «خوض حماس لأول مرة تجربة الإضراب عن الماء أكسبها وعيًا في استخدام هذا السلاح بالطريقة الصحيحة»[1].

(1) أيمن سدر: دراسة حول فاعلية وكفاءة قرارات حماس في إضراب عام 2019م، ص 29، نشر في مركز الزيتونة.

بيـد أن الباحـث يظـن في دراسـته التـي أجراهـا أن الفكـرة لم تختمـر، والخـبرة لم تنضـج بعـد، والتصـور لم يكتمـل عنـد الفصائـل كافـة.

الإضراب عـن المـاء فيـه اسـتعداد عـالٍ للتضحيـة، وإنكار للـذات كبير، قـد تصـل بالأسـير المـضرب إلى تقديـم أعـز مـا يملـك ألا وهـو حياتـه.

تتأثـر أجسـام الأسرى مـن الإضراب عـن المـاء عـلى نحـو مختلـف تبعًـا لصحـة الأسـير وقـوة بنيتـه، وسـلامة أعضائـه الداخليـة، ويبـدو أن أصحـاب الأجسـام السـليمة والقـوة البدنيـة العاليـة آخـر مـن يتأثـرون التأثـير الكبـير الـذي يـؤدي إلى انهيـار الأسـير أو إلى إغمائـه.

يبـدو أنـه مهـما كانـت لياقـة الأسـير البدنيـة عاليـة وصحتـه وسـلامة أعضائـه متوافـرة فـإن قدرتـه عـلى تحمـل الإضراب عـن المـاء لـن تتجـاوز خمسـة أو سـتة أيـام وينهـار كـما ظهـر مـن تجربـة الأسـير محمـود نصار غـير أنـه لا يمكـن الجـزم والقطـع مـن اسـتقراء حالـة واحـدة، لكنهـا كانـت الحالـة الوحيـدة مـن إضراب عـام 2019م التـي قابلهـا الباحـث في دراسـته.

وبخـلاف الإضراب عـن المـاء فـإن الباحـث يعـرف مـن تجربتـه الخاصـة بعـض الأسرى الذيـن كانـوا يمارسـون الرياضـة وتمارين الضغـط في اليـوم العـاشر، وأحيانًـا، فـما فوقـه في إضرابهـم عـن الطعـام، وبعضهـم لا يبـارح السريـر مـن اليـوم الرابـع إلا للـضرورة، أي أن هـذا مرهـون بصحـة الأسـير الجسـدية والنفسـية بـكلا الإضرابـين.

لم تصـل أصـداء الإضراب عـن المـاء عـام 2019م إلى وعـي ومعرفـة جماهـير الشـعب الفلسـطيني الحاضنـة الأمينـة والوفيـة لقضيـة الأسرى.

نظرًا لعدم تبلور تصور واضح حول الإضراب عن الماء من قبل مصلحة السجون لكونه تجربة جديدة، فهي تجهل حتى اللحظة 2022م كيفية التعامل معه على نحو منظم ومنهجي وثقة، وخائفة وترتبك أمامه وتسعى لإحباطه قبل اندلاعه[1] وإذا ما اندلع تحاول منعه من اليوم الأول بالإقناع والحيلة، وإذا ما تعذر عليها إقناع الأسير تحاول أن تتجاوب مع غالب مطالبه كي تنتهي منه على وجه السرعة ~~درءًا~~ لتداعياته إذا ما استمر الأسير في إضرابه عن الماء على المستويات كافة.

غير أن هناك رأيًا يرى أن «مصلحة السجون اكتسبت الخبرة من الإضراب عن الماء واستكشفتها جيدًا ومستعدة لأي حالة جماعية أو فردية»[2].

والراجح لدى الباحث أن تجربة الإضراب عن الماء لا تزال قيد الدراسة والبحث من قبل مصلحة السجون وفق منهج التجربة والخطأ ومنهج الاستقراء؛ إذ إنها في أول مرة تناول فيه الأسرى المحلول أعطت كل أسير كيسين (500 mg) وكيسًا واحدًا (250 mg) في المرة الثانية ثاني يوم، ولم تكن تعتزم تزويدهم به في اليوم التالي وإنما في الذي بعده[3] وهذا لربما يشير إلى منهج التجربة والخطأ.

(1) عندما يلوح به الأسير مهددًا إنه سيضرب عن الماء، تحاول الإدارة إحباطه بالمراوغة أو بالاستجابة إلى جزء من مطالبه.

(2) هذه إحدى النتائج التي توصل إليها الأسير الباحث أيمن سدر في بحثه حول إضراب عام 2019م.

(3) هذا لربما يشير إلى دراستهم مفاعيل تغير وتيرة إعطاء المحلول للمضرب عن الماء بالإضافة إلى تعمد وحرص الطبيب على استطلاعه الشخصي للمضرب ومتابعة نتائج فحوصاته في إطار منهجي الاستقراء والتجربة والخطأ.

توصيات

يوصي الباحث بما يلي:

1. تعميم هذه الدراسة على قيادات فصائل الحركة الوطنية الأسيرة، وكذلك في الخارج.

2. دراسة آثار الإضراب عن الماء على صحة وحياة الأسير المضرب عبر ندوات تلفزيونية وإذاعية تجمع متخصصين في الطب وعلم النفس وشؤون الأسرى.

3. معرفة رأي الشرع فيه ولاسيما من علماء دين لهم دراية واسعة بالصراع وأساليبه، وبخاصة تاريخ صراع الأسرى الفلسطينيين مع السجان.

4. بعد تجدد تجربة الإضراب عن الماء عام 2021م عبر ثلاثة أسرى آخرين لمطالبهم الخاصة؛ ينبغي أن تتبنى الفصائل موقفًا حازمًا بمنعه فرديًا حتى لا يتسنى لمصلحة السجون دراسته ومحاولة فهمه والإحاطة به من خلالهم، ولكيلا تعتاده فيفقد صدمة مفاجأته وقوة تأثيره ومفاعيله (انظر الملحق).

5. إسراع الحركة الوطنية الأسيرة بدراسته وفهمه ومعرفة مواطن القوة والضعف فيه، واستباق مصلحة السجون في ذلك، بل السعي إلى عرقلة الإحاطة به من قبل إدارات السجون لكيلا تكون تصورًا عنه

وتكون أكثر استعدادًا وقدرة على مواجهته والسيطرة عليه في حال بادرت إليه الحركة الوطنية الأسيرة جماعيًا.

6. في حال أجاز المتخصصون خوضه (بشروط أو بغيرها)، على الحركة الوطنية الأسيرة عدم الاستخفاف به؛ لأنها هذه _بحق_ صحة الأسرى وحياتهم، وادخاره إذا ما رأت خوضه ولو لمرة واحدة بالدهر، أن تخوضه لقضية استراتيجية جدًا تعد من المستحيلات كالتلفون العمومي الذي أنجزه وانتزعه الأسرى الفلسطينيون بالطعن (النقب) والحرق (رامون) وإضراب عن الماء 2019م.

7. توصية الأسير الباحث أيمن سدر «عدم استخدام خطوة الإضراب عن الماء إلا في حالة الضرورة وضمن الشروط التالية: «(1) أن يكون جماعيًا ويشمل أكبر عدد من الأسرى بحيث لا تستطيع المستشفيات استيعاب المضربين. (2) رفض الإنفوزيا في عيادة السجن وقبولها فقط في المستشفيات الخارجية»[1].

8. ومع ذلك، التلويح بالإضراب عن الماء بحكمة وحصافة؛ لا يقل أحيانًا أثرًا، بظروف ناضجة عن الدخول فيه، وإن كان لابد فدخوله في لحظة حاسمة محسوبة بدقة لتقصير أمد الإضراب عن الطعام، ليومين، أو ثلاثة من قبل نخبه قوية.

(1) مصدر سابق، ص30.

ملحق

تجدد تجربة الإضراب عن الماء عام 2021م

هناك ثلاثة أسرى فلسطينيين أعادوا تجربة الإضراب عن الماء عام 2021م كل على حدا، وفي وقت مختلف، وسجن مختلف، وكل لقضيته الخاصة، والأسرى الثلاثة هم:

1. رامي إبراهيم النجار (غزة).
2. عز الدين حمامرة (بيت لحم).
2. حسام مطر (القدس).

غير أن هذه المرة لم تكن هوية المضربين عن الماء محصورة في أسرى حماس والجهاد، وإنما تعدتها إلى حركة فتح عبر الأسير عز الدين حمامرة، وهذا يشير إلى إمكانية لجوء أسرى على نحو فردي في كافة الفصائل إذا ما عجزت المؤسسة التنظيمية والاعتقالية للفصائل عن انتزاع احتياجاتهم من إدارات السجون أو لأسباب أخرى.

وقد يستغرب المتابع لطبيعة مطالب هؤلاء الأسرى؛ إذ إن بعضها ليس له علاقة بصلاحيات مصلحة السجون كمطالب الأسير رامي النجار حيث كان مطلب إضرابه عن الطعام الذي طوره إلى إضراب عن

الماء هو إعادة صرف الراتب الذي قطعته السلطة الفلسطينية عنه، لكنه عندما تيقن أن هذا المطلب ليس من شأن مصلحة السجون حوله إلى مطلب الإفراج عن قارب صيد (حسكة) لأهله محجوز من قبل جيش الاحتلال في ميناء اسدود، وفعلًا تدخلت مصلحة السجون لدى جيش الاحتلال وتم الإفراج عنه وإعادته إلى ذويه في قطاع غزة بعد ثلاثة أيام من إضرابه عن الماء مع استمرار متابعته موضوع راتبه بالحوار مع السلطة الفلسطينية، وصرح رامي النجار أن إضراب 2019م هو مصدر إلهامه ومنبع شجاعته لخوص هذه التجربة، حيث قال: «رأيت أنه لا يُميت كما كنا نتصور، ويحقق مطلبك بأقصر مدة».

أما الأسير عز الدين حمامرة فكان مطلبه اقتناء بوت رياضة يناسب مقياس قدميه بعد أن عجزت كانتينا السجن عن توفيره له غير أن مصلحة السجون بعد إضرابه عن الماء سبعة أيام وافقت له على إدخال بوت عبر زيارات الأهل في كل مرة يحتاج إلى ذلك.

والأسير حسام مطر كان مطلبه دخول سجن رامون والإقامة فيه بعد أن رفضت إدارة السجن ذلك قبل الإضراب، فدخله بعد خمسة أيام من إضرابه عن الماء.

» تعريف بالكاتب الأسير

· **الاسم:** محمد سعيد حسن محمود إغبارية.

· **مكان الإقامة:** قرية مشيرفة - الداخل المحتل.

· **تاريخ الميلاد:** 1968/01/31م.

· **الحالة الاجتماعية:** متزوج.

· **الاعتقالات:** 1.

· **تاريخ الاعتقال :** 1992/02/26م.

· **الحكم:** 3 مؤبدات و15 عامًا.

الشهادات التعليمية:

· بكالوريوس الكترونيات - جامعة تل أبيب.

· ماجستير الديمقراطية والعلوم السياسية - الجامعة العبرية المفتوحة.

له مجموعة من المؤلفات، أهمها:

1. دليل القادة في فن القيادة.
2. عرب الداخل بين وهم الكنيست وسراب المساواة.
3. لمعات في عتم الزنازين.
4. عرب الداخل جزء من الصراع.
5. ولدي يكتب من وراء القضبان.
6. رحلة حكيم في سجن السبع.
7. رواية، قناديل لا تنطفىء.
8. تأملات في كرامة الإنسان.

» في هذا الكتاب

هناك وسيلة نضالية غير معروفة إلا لمنكوبي الهزات الأرضية، وغير مسبوقة بشدة غلوها وقسوتها في أوساط الأسرى الفلسطينيين؛ اجترح شكلها التضحوي عام 2019م أسرى فلسطينيون حملوا أرواحهم على أكفهم دون أن يطرف لهم جفن، بقرار فردي منهم، دون الرجوع إلى تنظيماتهم، لخير المجموع والمصلحة العامة للأسرى كافة، فصعّدوا العدو والصديق بسلاسل الإرباك والحرج الشديدين من قوة المفاجأة ووقع الصدمة. وكانت هذه الوسيلة التضحوية في جوهرها، والمتميزة بأقصى درجات إنكار الذات هي الإضراب عن الماء.

في هذا الكتاب يحاول الكاتب الأسير في دراسته وصف أحوال المضرب عن الماء يومًا بيوم لريادة التجربة وأهميتها، وسيتناول إضراب عام 2019م كنموذج حي وواقعي لعملية الإضراب عن الماء.